16. الفصل الخامس عشر

أبرز القادة أثناء الحملة الفرنسية علي مصر

(الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة 1792 م)[409] وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوي الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان – – – فخيل إليه أن يشيد علي ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)[410] أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم 122 عالماً)[411] ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)[412] ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخري فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء) أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع – – لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة

---

[409] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 71

[410] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج1 صفحة 73

[411] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

[412] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 388

للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)[413] ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ، وهكذا عزيزي القارئ وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة وحدث الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي وسنذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي

وكان جيش نابليون مكون من 36 ألف مقاتل[414] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من 55 سفينة حربية)[415] ، وكان الأمراء المماليك يحكمون مصر في ظل الحكم العثماني وكما لو كانوا قد توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت ، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر بل (ولم يكترثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)416 ، وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر– [417]ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول : وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون ، وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي 40000 زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ، ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء ، وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل ، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء ، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر ، فقد اشترك فيها نحو 10000 من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد ، وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم 21 يوليو سنة 1798 نزل الفرنسيون علي

---

[413] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 27

[414] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 82

[415] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 84

[416] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج5 صفحة 2

[417] وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية 1996 – مكتبة مدبولي

بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة :

اعلموا أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك – – ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخري نحو اليسار – – ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهجم أيوب بك وهو يصيح : ويل لكم أيها الملاعين ، قد ساقكم كبرياؤكم إلي أرضنا – – إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم – – – – ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابة وبدون الدخول في التفاصيل استطاع نابليون السيطرة علي مصر واحتلالها بسهولة

وتلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلي الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلي مصر ثم وقعت معركة أبو قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسري حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولي التي كانت في عهد نابليون ، ووقع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحييده أثناء قتال العثمانيين ، ثم تم قتل كليبر علي يد سليمان الحلبي أحد طلبة الأزهر وتم تولي الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر واستمر الصراع إلي أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركاً مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا تاركة عدة قوي تتصارع في مصر علي السلطة ، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية علي مصر ، وفيما يلي أبرز القادة خلال الحملة الفرنسية علي مصر

<u>نابليون بونابرت :</u>

ونصل في الحديث إلي القائد الشهير نابليون بونابرت الذي حاول أن يؤسس إمبراطورية ضخمة تكون قاعدتها مصر لما رآه كقائد محنك من أهمية موقعها وإمكانياتها الهائلة وقد حاول نابليون عند حضوره إلي مصر أن يخدع الشعب المصري بأول منشور[418] قام بنشره في مصر بمجرد حضوره ، لفت فيه نظر المصريين إلي أهمية

---

[418] (– – ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر

هذا الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض مثله علي حد تعبيره وكان نص هذا المنشور كالآتي : (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب

ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام ، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه – طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر ، المادة الأولي : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)

(أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلن يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من

سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا) مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة 30

الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب – – ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان – – وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)[419] ،

نابليون بونابرت

(إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاق الأهالي بالضرائب والمغارم)[420] لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)[421] كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)[422] وحاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكن فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)[423] ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيسي لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ، ووضع نابليون خطة محكمة لقمع هذه الثورة ببشاعة حيث تم ضرب حي الأزهر بالمدافع حتي هدم البيوت علي سكانها من النساء والأطفال

---

[419] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 152 ، 153

[420] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 260

[421] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 261

[422] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 265

[423] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 267

والشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة وأوشك الجامع الأزهر نفسه علي الانهيار لولا وساطة المشايخ لرفع الضرب وتعهدهم بوقف الثورة وقد اتخذ نابليون وسائل قاسية في القضاء علي الثورة وكانت مبالغ فيها جداً وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعوا إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان – – علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)[424] وإليك بعض ما كتبه الجبرتي عن أحداث ما بعد الثورة (دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس – – ثم دخلوا إلي الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف علي الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه)[425] وقام نابليون بعد الثورة بعدة إجراءات وقائية تحسباً لقيام ثورة أخري ومنها أنه أنشأ العديد من القلاع حول القاهرة وكان يقوم بتحويل المساجد الضخمة إلي قلاع مثل جامع الظاهر بيبرس كما قام بتحويل قصر إبراهيم بك الموجود علي النيل والمعروف باسم قصر العيني إلي مستشفي عسكري حصين يسع ألف مريض وجريح ، وكانت التحصينات والطوابي التي أنشأها نابليون حول القاهرة تضمن تدمير القاهرة بالكامل في أي لحظة إذا شاء بحيث سيطرت علي المداخل والمخارج بالكامل وكانت علي أماكن مرتفعة

(كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)[426] ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالغرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر براً وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة إلي أن توقف أمام عكا ووواليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار ، حيث قام نابليون بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعاً وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلي مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا (فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين 2200 قتيل منهم 1200 قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و 1000 ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى 2500 جريح ومريض)[427] وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون بهذه الكارثة

---

[424] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج1 صفحة 281

[425] عجائب الآثار (الجبرتي) ج5 صفحة 44

[426] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 20

[427] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 33

علي الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب المصري يوضح فيها أسباب عودته إلي مصر

ثم بعد ذلك وصل جيش عثماني بحراً إلي أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم 17 يوليو سنة 1799 م مما اضطر نابليون إلي التوجه إلي الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة (وكانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسري نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره وفقد الفرنسيون 250 قتيلاً وجرح منهم سبعمائة وخمسون)[428] وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلي فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلي الجنرال كليبر كما أعطاه تفويض للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخري لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ وكل رسالة لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ، أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي – – وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجئني إلي أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)[429]

<u>الجنرال كليبر :</u>

هوالجنرال جان باتيست كليبر – Jean-Baptiste Kléber ، **ولد في** 9 **مارس** 1753 **وقتل في** 14 **يونيو** 1800 ، **أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداء شديد بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية ولم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأقنعة الزائفة ، وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ، وأرسل كليبر رسالة إلي الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمي بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري ، وقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب ، ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدي إلي حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين**

---

[428] **تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 68**

[429] **تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 87**

وانتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلي القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلي القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة وهي المعروفة بثورة القاهرة الثانية والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولي ، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلي عدة مدن وقري بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهي الخطورة مما أدي إلي رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ، واستطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ، وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تماماً

ولا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ، حيث وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي (وجري علي الناس مالا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب) وكتب الرافعي (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيعاً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)[430] وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)[431] ، واستطاع أحد طلبة الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل الجنرال كليبر وكان هذا العمل من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر بل وكان ذلك تمهيداً لنهايتهم في مصر حيث لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدي إلي فشل الحملة في مصر ، ووقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ، ونص الحكم الذي أصدرته المحكمة (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")[432] واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف ، وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر ، وتولي الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menou وكان مينو قد أعلن إسلامه

---

[430] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 150

[431] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 152

[432] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 170

وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو " وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)433 ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكثرت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد دون المستوي[434] ،

كليبر

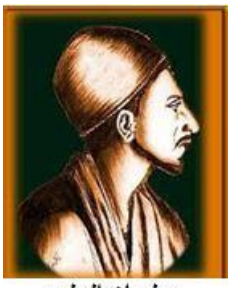

سليمان الحلبي

الجنرال مينو

وتم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبى قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز وظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدي إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحيه والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلي البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم)435 ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلي الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر

وهكذا انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبيس فعاد منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ، ولكن كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمدهم بالقوة اللازمة ولم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأي أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح

---

[433] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 179

[434] إن إدراج هذا النموذج من القادة في هذا الكتاب يوضح بلا شك الفرق الكبير بينه وبين القادة البارزين

[435] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 197

واجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في 27 يونيو 1801 بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)436 وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، علي أن يسري هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ، ولكن مينو عندما بلغه هذا الاتفاق رفضه تماماً بل واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)437 وهكذا غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمي لموقع مصر الذي أصبح حلماً لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة 1882 م

---

[436] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 217 ، 218

[437] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج2 صفحة 223